الخطاب الصوفي وأثره في تنمية القيم الروحية

Sufi discourse and its impact on the development of spiritual values

السعيد مسعي محمد[1]*، محمد حناي[2]

[1] جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي، الجزائر، mesai-mohammed-said@univ-eloued.dz

[2] جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي، الجزائر، mohammed-hannai@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام:06-11-2020 تاريخ القبول: 11-05-2021 تاريخ النشر: 30-06-2021

الملخص:

يتناول هذه المقال الخطاب الصُّوفي، ويُعالج مضامينه في تنمية القيم الرُّوحيَّة مُبرزاً أهمية هذا الخطاب في ظلِّ التَّحديات المعاصرة، ومُستعرضاً أبعاده المتعدِّدة في تنمية القيم الرُّوحيَّة لإنسان العصر المعاصر الذي تحيط به الملذات من كلِّ الاتجاهات وتتقاذفه الأهواء وغطرسة الأنا في كلِّ الأزمنة واللحظات، مستنداً في ذلك إلى بعض خطابات مشايخ الطُّرق الصُّوفية في عصرنا المعاصر؛ كما يهدف هذا المقال إلى توضيح قيمة هذا الخطاب في تعزيز قيم التَّفاعل الإيجابي مع روح العصر وتنمية الحركة العلمية والثقافية التي هي أساس البناء المجتمعي للقيام بإحداث نهضة علمية والرقي بالفكر إلى المستوى المطلوب.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الصُّوفي – القيم الرُّوحيَّة – التَّحديات المعاصرة – التَّفاعل – أثر – الإيجابي.

Abstract:

This article deals with the Sufi discourse, addresses its contents in the development of spiritual values, underscores the importance of discourse in the face of contemporary challenges and reviews its multiple dimensions in the development of the spiritual values of the people of the contemporary age who it is surrounded by pleasures of all directions and is surrounded by the desire and the hubris of Alana At all times and moments, passions and the arrogance of the ego confront him in all times and moments, relying on some a speech of Sufi Sheikhs in our contemporary era. This article also aims to clarify the importance of this speech in promote positive interaction values with the spirit of the era times, And the development of the scientific and cultural movement, which is the basis of community-based construction to do so To bring about a scientific renaissance and to bring thought to the required level.

***Keywords*:** The Sufi discourse -The spiritual values - The Contemporary challenges – The interaction – Effect - The positive.

* المؤلف المرسل.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

مقدمـة:

لقد تنوعت ألون الخطاب الدِّيني في القرآن الكريم من نوع لآخر، وذلك حسب المقام الذي يقتضيه الحال، فمنه ما كان خطاباً دعوياً، ومنه ما كان خطاباً سياسياً ومنه ما كان خطاباً اجتماعياً، وهكذا يكون الخطاب على اختلاف المناسبات والظروف، غير أنَّ الخطاب المخصوص بالذكر هنا من هذه الأنواع هو الخطاب الرُّوحي في مقام الإحسان (الخطاب الصُّوفي) وهو أحد الخطابات الدِّينيَّة التي تهتم بالشُّؤون الرُّوحية والإيمانيَّة للفرد المسلم، حيث جاء هذا الخطاب يرمي إلى تأديب النَّفس وتزكيتها وفقاً لمعطيات القرآن الكريم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ وتغيير التَّصرف وفقا لما جاءت به السُّنة المحمَّديَّة تجسيدا لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **(إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)**، موازاة مع قول الحق جلَّ وعلا: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾، حيث أنَّ في هذه الآية إشارة إلى تهذيب النَّفس والتَّأسي به صلى الله عليه وسلم لمن ألقى السَّمع وله قلب منيب.

لقد عرف الخطاب الصُّوفي في الآونة الأخيرة اهتماما بالغا الأهمية في القول والعمل، لاسيما من أصحاب المشارب الذَّوقيَّة العرفانيَّة، وذلك لما فيه من الدَّعوة إلى التَّحلي بالقيم المشهودة في القرآن الكريم، وعندما أراد أناس عزل الدِّين وقيمه النَّبيلة عن حركة الحياة لصالح فئة دون مراعات لضوابط الدِّين نتج عنه اختلالاً في التَّوازن البشري بين كفتي المادة والرُّوح، فأصبح الفرد حينئذ في تيه يتخبطه بين دفتي الفراغ الرُّوحي، ما أدى إلى زعزعة معالم الحياة، وحينها علمت النَّفس أنَّ السَّلامة فيها عدم التَّحيز لذاتها، ومن أجل ذلك جاء الخطاب الصُّوفي الهادف إلى تحقيق عملية التَّوازن في السُّلوك الإنساني بين روحي ومادي، من خلال تهذيب النَّفس وتزكيتها وتعديل سلوكها وإرجاعها إلى الله في كلِّ زمن وحين وفي أيِّ سلوك كبر أو صغر، وجعل ناصيتها تنتهج المعيَّة الإلهية حتى ترتقي إلى عليَّة، عن طريق الدَّعوة إلى التَّحلي بالقيم الرُّوحيَّة والعمل على أرساء قواعد متينة لها في جنبات النَّفس البشريَّة بالاستناد إلى قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ**﴾.

الإشكالية: في خضم هذه التناقضات جاء طرح الإشكاليَّة التَّالية: **ما هو مفهوم الخطاب الصوفي؟ وما هي أبعاده الدِّينية في تنمية القيم الرُّوحيَّة؟**

مناهج الدِّراسة: اتبعنا في هذه الدِّراسة على منهجين هما:

المنهج الاستدلالي: حيث قمنا فيه بعرض الإشكاليَّة عرضاً عقلياً وانتقلنا فيه للاستدلال من قضيَّة إلى قضيَّة أخرى معتمدين على الاستقراء.

المنهج الوصفي: فذكرنا من خلاله خصائص ما هو كائن في الخطاب الصُّوفي وآثره وفسرنا به الظُّروف والعلاقات التي تربط بين الوقائع المكونة لهذا الخطاب وانتاجيته.

أمَّا **الهدف من هذه الدِّراسة:** فهو إبراز أهميَّة الخطاب الرُّوحي في تشكيل حياة الإنسان المسلم وفق معايير أخرويَّة تستند إلى العمل الدُّنيوي الذي يرى الله في كلِّ زمن وحين بناء على مقامي المراقبة والمشاهدة.

أهميَّة الدِّراسة: لفت الاهتمام إلى أنَّ الخطاب الصُّوفي لا زال متواجداً بل أنَّه متجذر في الأمَّة الجزائريَّة.

المرجع المعتمدة في هذه الدِّراسة: للإجابة عن الإشكاليَّة المدرجة اعتمدنا على مجموعة من المراجع تناولت الموضوع من عدَّة زوايا مختلفة، كتاب "أبو العلا عفيفي" الموسوم بعنوان "التَّصوف الثَّروة الرُّوحيَّة في الإسلام"

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهو مرجع مهم بتخريجاته وتعريفاته، كذلك كتاب الشَّيخ عبد الحليم محمود الموسوم بعنوان "قضية التَّصوف – المنقذ من الضلال" وهو كتاب عرض إلى كثير من القضايا حول التَّصوف انطلاقاً من التَّعريفات، إلى المعرفة العقليَّة، إلى المطابقات الشَّرعيَّة في أحواله ومبانيه، فهو دراسة مهمة توضح وتبيِّن قيمة وجود التَّصوف في حياة الفرد المسلم. كما استخدما مرجعاً أخر للمؤلف "نجم عبود نجم" والذي وسمه بعنوان "الرُّوحيَّة في الأعمال"، والذي عرض فيه إلى أنَّ الرُّوحيَّة هي المصدر الكامل والكامن لتجديد القدرات الفرديَّة وتحفز الأفراد إلى القيام بالأعمال بناء القيم الرُّوحيَّة القويَّة التي يمتلكونها. مع استخدام مجموعة كلمات طبعت لأحد مشايخ الطُّرق الصُّوفيَّة كنماذج للاستدلال بها على وقع الخطاب الصُّوفي في زمننا المعاصر.

خطة الدِّراسة: قسمناها إلى ثلاثة عناصر أساسيَّة، فقد بدأنا بمحاولة تحديد المفاهيم والتَّعريفات المختلفة للخطاب الصُّوفي والتَّنميَّة الرُّوحيَّة، ثمَّ استعرضنا أبعاد هذا الخطاب في تنميَّة القيم الرُّوحيَّة، مع الاستدلال بنماذج لهذا الخطاب من شيوخ معاصرين.

1- مفهوم الخطاب الصُّوفي والتَّنميَّة الرُّوحيَّة:

1- 1- تعريف الخطاب لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور: "يُقَالُ: خَطَبَ فلانٌ إِلَى فلانٍ فَخَطَّبَه وأَخْطَبَه أَي أَجابَه. والخِطابُ والمُخاطَبَة: مُراجَعَة الكَلامِ، وَقَدْ خاطَبَه بالكَلامِ مُخاطَبَةً وخِطاباً، وهُما يَتخاطَبانِ" (ابن منظور، 1414هـ)

وجاء في أساس البلاغة للزمخشري: "خطب خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام. وخطب الخطيب خطبة حسنة. وخطب الخاطب خطبة جميلة. وكثر خطّابها. وهذا خطبها، وهذه خطبه وخطبته. وكان يقوم الرَّجل في النَّادي في الجاهلية فيقول: خِطْب، فمن أراد إنكاحه قال: نكحٌ. واختطب القوم فلاناً: دعوه إلى أن يخطب إليهم، يقال: اختطبوه فما خطب إليهم" (الزمخشري، 1419هـ/1998م) .

1-2- تعريف الخطاب اصطلاحا:

لقد تعدَّدت تعريفات الخطاب من باحث لآخر، وأنَّ مجمل تعريفاته هي في المضمون تعريف واحد، ونكتف هنا بتعريف واحد حيث يعرفه المناوي بقوله: "الخِطاب هو القول الذي يفهم المخاطَب منه شيئاً" (عبد الرؤوف ، 1410هـ/1990م) .

1-1-1 تعريف التَّصوف:

- **لغة:** في أصل كلمة (تصوف)، اختلفت آراء العلماء والباحثون فمنهم من أرجع أصل هذه الكلمة إلى لبس الصُّوف، دلالة على زهد صاحبه والابتعاد عن زخارف الدُّنيا كما كان صلى الله عليه وسلم وصحابته يلبسون الصُّوف، ومن هؤلاء السِّراج الطُّوسي (الطوسي، 1960/1380)، وعبد الله بن عجيبة (بن عجيبة، دون سنة) .

ومنهم من أرجع هذا المصطلح إلى أهل الصُّفة وهم جماعة فقراء المهاجرين أخرجوا من ديارهم (أبو العلا عفيفي)، ومنهم من أرجعها إلى الصَّفا مثل أبو بكر محمد الكلاباذي (الكلاباذي، 1352هـ/1994م).

- **التصوف اصطلاحا:**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لمصطلح التَّصوف في الاصطلاح عدَّة تعريفات وذلك نظرا لاختلاف الزَّمان والمكان، ومن جملة هذه التَّعريفات نذكر:

عرفه أبو بكر الكتاني (الشعراني، 1315 هـ) (ت233هـ) حيث قال: "التَّصوف: خلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الصَّفاء" (عبد الحليم، دون سنة).

ويروي القشيري في رسالته عن أبي محمد الجريري (ت311 هـ) أنَّه لما سُئل عن التَّصوف قال: "التَّصوف: الدُّخول في كل خُلق سَنِي، والخروج من كل خلق دنيّ" (القشيري، 1422هـ/2001م). وقال أبو سعيد الخراز (السُّلمي: ، 1419هـ/1998م) لما سئل من الصُّوفي: "من صَفى ربهُ قلبَه فامتلأ نورًا، ومن دخل في عين اللذة بذكر الله" (الحسيني الحسيني ، 1434هـ/2013م)' والمستخلص من هذه التَّعريفات نخلص إلى تعريف شامل كما عرفه الشَّيخ أحمد التِّجاني (الزركلي، دون سنة) لما سئل عن حقيقة التَّصوف، فأجاب بقوله: "اعلم أنَّ التَّصوف هو امتثال الأمر واجتناب النَّهي في الظَّاهر والباطن من حيث يرضى لا من حيث ترضى" (سكيرج، 2009) .

ومن خلال هذه المعطيات نستنتج أنَّ الخطاب الصُّوفي المتعارف عليه عند أعلام التصوف، وهو الخطاب الدِّيني الإسلامي المستمد مادته من القرآن الكريم وسنة النَّبي الأمين صلى الله عليه وآله وسلم والذي يتسم بالطَّابع الرُّوحي الوجداني.

تعريف التَّنمية الرُّوحيَّة:

- **لغة:** جاء لفظ تنمية من الفعل نمَّى ينمِّي، نَمِّ، تنميةً، فهو مُنمٍّ، والمفعول مُنمَّى، نمَّى إنتاجَه: زادَه وكثَّره، رفع معدَّله. نمَّى ذاكرتَه: أنعَشها وقوّاها "التَّمارين البدنيّة تُنمِّي الجسمَ" (أحمد مختار، 1429هـ/2008م) .

ومن خلال التَّعريف اللغوي يتضح لنا أنَّ دلالة التَّنمية تعني الرِّفعة والزِّيادة والتَّطور.

- **اصطلاحا:** لمفهوم التَّنمية البشرية تضارب متباين من كاتب لآخر وهذا حسب مقتضى متغيرات الظُّروف، وعليه فالتَّنمية في الاصطلاح العام هي: "عبارة عن التَّغيير الإرادي الذي يحدث في المجتمع سواءً اجتماعياً، أو اقتصادياً، أو سياسياً، بحيث ينتقل من خلاله من الوضع الحالي الذي هو عليه إلى الوضع الذي ينبغي أن يكون عليه، بهدف تطوير وتحسين أحوال النَّاس من خلال استغلال جميع الموارد والطَّاقات المتاحة حتى تستغّل في مكانها الصَّحيح، ويعتمد هذا التَّغيير بشكل أساسي على مشاركة أفراد المجتمع نفسه." (سناء، 2016)

كما أنَّ موضوع التَّنمية ليس مقتصراً على تنمية الجوانب المادية الحسية من اقتصاد واجتماع وسياسة وثقافة فحسب بل شمل بذاته كل ما له علاقة بالتَّطور الذَّاتي كتزكية النَّفس وتنميتها بالأخلاق الحميدة والقيم وتطوير صفاتها النَّبيلة لتعطي صورة معبِّرة بمدلولها على مدى رقيها في الجانب الرُّوحي، لذا كانت التَّنمية الرُّوحية هي العمل على تطوير سلوك الفرد وتهذيب نفسه والرُّقي به في أعلى مراتب العلم والعمل.

1-1- أهمية الخطاب الصُّوفي في ضوء التَّحديات المعاصرة.

إنَّ المقصود بالخطاب الصُّوفي في هذا المقام والمتعارف عليه عند الصُّوفية هو الخطاب الدِّيني المتسم بالطَّابع الرُّوحي الوجداني، والمستوحى نصه من تعاليم الإسلام ولغة القرآن، وعليه يعد الخطاب الصُّوفي إحدى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ألوان الخطاب الإسلامي، وفي وقت تحالكت فيه ظروف الحياة واختلت فيه موازين العدل بين الحق والباطل، واشتدت فيه المحن والمصائب بطغيان الجانب المادي دون اعتبار للجانب الرُّوحي، وأصبح الفرد حينئذ يتخبط بين مجريات الحياة، ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا**﴾(سورة النساء، الآية 143.)، وفي خضم هذه المعطيات والتَّناقضات جاء الخطاب الصُّوفي نبراسا بما استوحاه من فيض الوحي والقلم، وبما استقاه من سنة خير من بُعث على وجه الأرض ﷺ يُشدُّ فيه الرِّحال إلى قلوب أناس اكتست مسامعهم بحجاب الغفلة وحبِّ الشَّهوات والرُّكون في ملذات الدُّنيا بغض النَّظر عن العكوف في إقامة حدود الله سبحانه وتعالى، وانصراف بصيرة القلب عن ما أمر به الشَّارع الحكيم في مقتضى مشيئة القدر في إدارة الحياة الإنسانيَّة، لذلك ونظرا لمتطلبات الواقع المعيش، وفقدان المستقبلات الحسيَّة للقلب والضَّمير، وانعدام عامل التَّحريض الذَّاتي فقد تعدَّدت مشاهد الخطاب الصُّوفي واتجاهاته في منحى الحياة من وجهة لأخرى، ومن بيئة لأخرى وذلك لتنوع طبيعة الأجناس البشريَّة وتعدُّد المشارب العرفانيَّة والأذواق الرُّوحية المتفاوتة بين أعلام التَّصوف، بحيث نجد الهدف الأسمى والغاية الكبرى عندهم واحدة ألا وهي إخراج الفرد من ظُلمات الوهم المتبع للأنا واتباع النَّفس الذي قاعدتها الهوى إلى تحقيق مقتضى العبودية والتَّوحيد الإلهي مع مراعاة ضوابط الشَّرع الحنيف في تحكيم شعائر العبادة لله تعالى، لذا جاء مسعى الخطاب الصُّوفي في ضوء التَّحديات الرَّاهنة يهدف إلى تحرير النَّفس من جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وفق المعطيات الرُّوحيَّة المستوصى بها في نصوص الوحي الإلهي، تجسيدا لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾(سورة النحل الآية 36.)، وقال أيضا: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا**﴾(سورة النساء، الآية 36.).

وفي ضوء الانحراف الأخلاقي وتفشي بعض السُّلوكيات الغربية في الوسط الاجتماعي العربي المسلم، ولاسيما فئة الشباب – التي لم يشهدها التَّاريخ الإسلامي من قبل ولم يكن متعارف عليها في سيرة الأسلاف– أخذ الخطاب الصُّوفي بألوانه البيانية المتعددة جادًا في الحدِّ من امتداد سريانه مفعول الفساد الخُلقي، وذلك بتهذيب النَّفس وتعديل السُّلوك لدى الفرد بوسائل وأساليب انتهجها أرباب التَّصوف انطلاقا من أسس المنهج القرآني في التَّربية الرُّوحية الإيمانيَّة الذي يعتمد على **القدوة** للرقي به أعلى منازل العلم وأرقى مراتب العمل، تكريسا للتوجيه النَّبوي في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(سورة القلم، الآية 04) فمن أجل هذا عمل الصُّوفيَّة بخطاباتهم على إرساء قواعد متينة مستمدة الأصول من القرآن الكريم ومن السُّنة النَّبويَّة الشَّريفة، تماشيا مع روح الشَّريعة في الدَّعوة إلى تزكية النَّفس بالكتاب والحكمة لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾(سورة آل عمران، الآية 164).

إنَّ الملاحظ في ظلِّ التَّعدُّد الثَّقافي واختلاف الأجناس وترعرع ظاهرة العولمة بين المجتمعات المسلمة، أنَّ دعاة الصُّوفيَّة بخطاباتهم الرُّوحيَّة لم يتركوا حياة الفرد عشوائية دون انتظام في مسايرة إدارة الحياة له، بل سعوا في تحقيق التَّوازن بين الجانب المادي والجانب الرُّوحي بمنظور المنطق القرآني قال تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾(سورة الإسراء، الآية 29)، باعتباره المنهج الوحيد الذي يكفل للمرء سعادته دنيا وأخرى دون عناء وتعب، وعلى اعتبار أن الإنسان في الكون لم يُخلق عبثا كما زعم أعداء الدِّين لقوله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾(سورة المؤمنون، الآيتان: 115، 116)، وفي مقابل ذلك أنَّه عندما أراد أناس استقلال مجرى الحياة بعيداً عن ضوابط الدِّين وفقًا لمتطلباتهم أرادوا غض النَّظر عن معطيات الجانب الدِّيني، وتعميم ذلك عن طريق دائرة الفكر وأسلوب الإقناع والتأثير في النُّفوس، فاستوعب الصُّوفيَّة هذا الأمر العظيم – فيما أطلق عليه اسم فصل الدِّين عن السِّياسة – فلم يركنوا في الحياة سباتًا بل تصدوا له بالدَّعوة والتَّوجيه، وتجديد الخطاب الدِّيني وتطوير لغته تماشيا مع لغة العصر والتَّفاعل الإيجابي له ليحققوا بذلك الرَّد البليغ على مزاعم وافتراءات أعداء الدِّين، ممارسين ذلك من خلال دعوتهم إلى خدمة الوطن وصونه، ودليل ذلك الكلمة التَّوجيهيَّة التي ألقاها شيخ الطَّريقة التِّجانيَّة "محمَّد العيد التِّجاني" حيث قال: «...كما أوصي أيضاً... بأن يكون الأحباب لبنات مباركة وسواعد خير لصالح الوطن المفدى الجزائر العظيمة، نمدُّ لها أيدينا نخدمها بإخلاص كلٌّ حسب موقعه وما أُسند له من مهام كما كان رجال الطَّريقة دائماً عبر العصور والأزمنة، خدموا الدِّين والوطن وساهموا في تحريره مجاهدين مُخلصين وشهداء أبرار صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وبعد الاستقلال شاركوا في دفع عجلة النَّهضة والتَّنميَّة في شتَّى المجالات» (محمد العيد التجاني، 2012).

هذا الخطاب حاول فيه شيخ هذه الطَّريقة أنْ يستحثَّ مريده في ممارسة حبَّ وطنهم الجزائر في واقعهم المعاش من خلال وظائفهم التي يشتغلون بها، كما قام بتعبئتهم روحياً من خلال ربطهم بماضي أسلافهم المجيد جهاداً واستشهاداً من أجل الوطن، وهو خطاب يرتكز بالإضاءة على نقاط معينة يضمن من خلالها الشَّيخ وضع مريده في الاتجاه الصَّحيح، لأجلهم كأفراد، ولأجل الوطن كجمع.

أما في دائرة التَّعايش الاجتماعي في الإسلام فقد اعتنى الخطاب الصَّوفي بشد أواصر العلاقات الاجتماعيَّة بين الأفراد المسلمة، عن طريق بثِّ روح المحبَّة وقيم الإسلام لربط العلاقات، وسد الذَّريعة أمام تسلل الأفكار والدَّعوات الهدامة التي من شأنها الإطاحة بالإسلام وإضعاف قداسته في نفوس المسلمين، لذا اتسم الخطاب الصُّوفي في هذا المنحى بخاصية العالمية والشُّمول، فهو لا يخص شخص دون آخر، أو بلد دون آخر بل تعدَّ ذلك لشموليته واتساع مجالاته، بالمحافظة على شخصية المسلم وكيان الإسلام ومعالمه، ففي ذات السِّياق نجد أنَّ الخطاب الدِّيني لرجال الصُّوفية ضمن موكب الدَّعوة إلى الله تعالى لم يتركوا فضاء السَّاحة الإسلاميَّة شاغرة بل أخذوا ببالغ الاهتمام جميع أركان الدَّعوة إلى الإسلام من خلال الدَّعوة إلى المحبَّة والتَّحابب، وفي هذا يقول شيخ الطَّريقة التِّجانيَّة الحالي: «..فالمحبَّة رباط القلوب وصفاء النُّفوس وتحقيق الغايات النَّبيلة وتوحيد الأهداف من أجل علوِّ الرَّاية الإسلاميَّة والتَّحلي بالفضائل الإنسانيَّة طاعة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم» (محمد العيد التجاني، 2012).

فهذا الاستشهاد المقدَّم يقرر كلّ ما ذكرناه سابقاً حول التَّعايش الاجتماعي في بوتقة الأخوة سواء ذات الرِّباط الدِّيني، أو الرِّباط الإنساني.

1-2- خصائص الخطاب الصُّوفي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد استقطب الخطاب الصُّوفي جملة من الخصائص والميزات مثل غيره من أنواع الخطاب تميزه وتجعل منه خطاباً فاعلاً له آذان صاغية وقلوب واعية، ومن جملة هذه الخصائص نذكر:

- **الثَّبات والمرونة:**

الثَّبات في الخطاب الصُّوفي هو ما استقر وثبتت عليه الأحكام في الأصول، أمَّا المرونة هو كل ما كان قابل للتغيير والتَّطور والتَّجديد ويكون في الوسائل والأساليب والمناهج والأمور الفرعية، حيث "أنَّ من مزايا التَّشريع الإسلامي، أنَّه يجمع بين الثَّبات والمرونة، فالثَّبات في الأصول والأهداف، والمرونة في الفروع والوسائل. ففي ظلِّ هذه الخاصية لا يوجد تعارض بين وجود الثَّوابت وتحقُّق التَّطور الدَّائم، بل هو يجمع في تناسق بديع بين الثَّبات والمرونة، واضعا كلا منهما في موضعه الصَّحيح، فالثَّبات في ما يجب أنْ يخلد ويبقى، والمرونة في ما ينبغي أنْ يتغير ويتطور، وهذا من روائع الإعجاز في هذا الدِّين، وآية من آيات عمومه وخلوده وصلاحيته لكل زمان ومكان" (الزيباري).

لقد استمد الخطاب الصُّوفي خصائصه وميزاته من فحوى القرآن الكريم على غرار أنَّه هدفه الموسوم بتعزيز القيم الرُّوحية، لذا اتسم بالثَّبات والمرونة. ومن ذلك أنَّ الخطاب الصُّوفي لديه ثابته وهي الدَّعوة الدَّائمة إلى تقوى الله واتباع نبيه الكريم، يقول أنموذج دراستنا: «...ومن باب التَّواصي بالحق، أذكركم بأنَّ الخير كله في طاعة الله تعالى وإتباع سنّة نبيِّه الكريم صلى الله عليه وسلم ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾(سورة النُّور، الآية 52) فهذا من الدَّعائم التي قامت عليها طريقتنا الغراء، ومن موارد قوَّتنا وإشراقنا» (محمد العيد التجاني، 2012)، ويقول أيضاً: «..إنَّ طريقتنا قوامها الكتاب والسُّنة، ودعامتها خشية الله التي تسمو بالإنسان إلى كلِّ خير وقد قيل "رأس الحكمة مخافة الله"، وهي من محاسن الصِّفات التي تجعل الفرد صالحاً في المجموعة الإنسانيَّة، لأنَّها تُربي فيه الضَّمير الحي اليقض، فعقيدتنا الرَّاسخة بالله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم عمادُ حياتنا الرُّوحيَّة» (محمد العيد التجاني، الكلمة التَّوجيهيَّة بمناسبة الزِّيارة السَّنويَّة 1434هـ/2013م، 1434هـ/2013م).

أمَّا المرونة فهي متمثلة في تعاملها مع شتى مناحي الحياة والمستجدات والاستحقاقات، وهذا القول يدلل على ذلك: «...وهاهي الاستحقاقات الوطنيَّة قادمة فلنؤم صناديق الاقتراع جميعاً دون توانٍ، ولنختر أحسن المنتخبين وأفضل المشاريع الانتخابيَّة لصالح الوطن والمواطن» (محمد العيد التجاني، الكلمة التَّوجيهيَّة بمناسبة الزِّيارة السَّنويَّة 1433هـ/2012م، 2012).

- **الشُّموليَّة:**

والمراد بهذه الخاصيَّة الإحاطة بجميع مقتضيات الواقع المعيش ومتطلباته وحاجياته، من التَّوجيه والإرشاد في الأمر والنَّهي ما يكفل تنمية القيم الإنسانيَّة للفرد وما تحمله من دلالة، فاستمد الخطاب الصُّوفي شموليته من شموليَّة القرآن الكريم انطلاقا من قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾(سورة الأنعام، الآية 38)، وقال أيضا: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾(سورة يس، الآية 12)، وقال أيضا: ﴿**كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا**﴾(سورة النبأ، الآية 29)، كما أنَّ شموليَّة الخطاب هي من شموليَّة الشَّريعة وهذه الأخيرة لم تتحيز في احتكام الأمر والنهي على بلد دون آخر بل جاءت للناس كافة لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾(سورة الأنبياء، الآية 107) ومن شموليَّة الخطاب الصوفي الإحاطة بكل ما أراد الله به أن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يوصل في الأركان الثلاثة للدين الإسلامي ألا وهي ركن التشريع الإسلامي (الإسلام)، وركن الإيمان، وركن الإحسان.

•قابليته للتجديد:

الملاحظ في الخطاب الصُّوفي أنَّه لم يكن بدعاً من الخطابات، بل كان جزءًا من الخطاب الدِّيني القرآني، فبهذا وقعت عليه حتمية التَّجديد تجسيدا لقوله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**» (أبو داود، دون سنة)' وانطلاقا من هذا الحديث نجد أنَّ الخطاب الصُّوفي يتطور بتطور الحياة فهو يواكب مجرى الزَّمن والأحداث، لذا كان من جملة خصائصه التَّجديد في المحتوى والمضمون ولا يتأتى فعل هذا إلَّا بتحديث الوسائل والأساليب وهما المسؤولان على عملية التَّبليغ والتَّوجيه، والتَّجديد المنوط في هذا المقام هو "إحياء ما اندرس من العمل من الكتاب والسُّنة والأمر بمقتضاهما" (أبادي، 2013م)، وهو أيضا بمعنى آخر "إعادة الدِّين بنصوصه وقواعده ومناهج الفهم والاستنباط فيه، إلى حالته الأولى التي أنزله الله عليها، وإزالة كل ما تراكم عليه من سمات ومظاهر، طمست جوهره، وشوّهت حقيقته" (عدنان محمد، 1424هـ)، **فجميع الخطابات تلح بمضامينها إلى عملية التَّجديد في أمر الدِّين والعقل ومعالم الفكر الرَّشيد** وخلافا للعقل القاصر في فهمه لمقاصد النَّص ندرك أنَّ (التَّجديد لا يعني تغييرا في جوهر الدِّين أو أصوله، وإنما يعني إعادته إلى النَّقاء الذي كان عليه يوم نشأته، حيث الأصالة الفكرية لأركانه وثوابته، كما يعني القدرة على استيعاب مستجدات العصر، وما يحمله من قضايا وتحديد موقف الشَّرع منها) (أنور، 2015). وهذا القول يوضح ذلك: «... إنَّنا ننتمي إلى أمَّة تأمر بالعلم وتحضُّ عليه، وفي عصر لا مكان فيه لمن لا يبتغي العلم أو يدعوا إليه، لا بدَّ من مُسايرة ركب العولمة، ويكون ذلك بالتَّكوين المتخصِّص في شتى المجالات، المبني على قواعد علميَّة، تدخل في ذلك التَّقنيات الحديثة للتنمية البشريَّة والتَّدريب وتطوير مهارات الذَّات، والعمل وفق منظور استراتيجي مُحدَّد الأهداف، ويكون الوقتُ فيه أداةً نستطيع التَّحكم فيها، وكما قيل "الوقت من ذهب إنْ لم تحرص عليه ذهب، فالحرص منَّا استثماره واجب وأكيد، وتحقيق المنفعة منه غايتنا جميعاً» (مُحمَّد العيد التِّجاني، 2016م).

في هذا النَّص أثار شيخ الطَّريقة التِّجانيَّة أمام مريديه متغير عالمي جديد ألاَ وهو العولمة ومقتضياتها، فنبههم إلى التَّصدي لها من خلال العلم والفكر، والتَّكوين المتخصص في شتى المجالات والميادين، مع الإقدام على تطوير الذَّات، عارضاً في ذلك الوسائل والآليات التي يمكن استخدامها، فهو وضح المشكلة واجترح لها الحلول، وهذه إحدى خصائص التَّجديد عند الصُّوفية، فهي تشخص العلَّة وتضع لها الدَّواء، وما على المريدين إلاَّ الاقتداء والتَّنفيذ.

•الوضوح في الغاية والهدف:

يتجلَّى فهم المعنى الحقيقي لهذه الخاصية في قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾(سورة الذاريات، الآية 56) وعليه "إنَّ من مسببات نجاح أي عمل هو وضوح الهدف المراد تحقيقه" (الربيعي، 2012م) لذا تعد خاصية الوضوح من أبرز خصائص الخطاب القرآني وسماته في الدَّلالة وبيان معالم التَّشريع والحكمة منه، حيث أنَّ النَّاظر في عمق الآيات ليجد في كل سورة أو آية بلاغة الوضوح والتِّبيان لما جاءت به لكي لا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرُّسل قال تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾(سورة فصلت، الآية 44)وقال تعالى: ﴿**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ**﴾(سورة الأعراف، الآية 145)، وعليه استمدت جميع الخطابات على اختلاف أنواعها خاصية الوضوح من خصائص القرآن الكريم، ومنه فقد جاء الخطاب الصُّوفي واضح الغاية والهدف في القول والفعل لإيصال ما أمر به الله تعالى تطبيقاً لما استوص عليه الإنسان في القرآن الكريم.

•العالمية:

المراد بهذه الخاصية أنَّه خطاب يتعدى الحدود الجغرافية، نظرا لاتساع دائرة التَّصوف في العالم فلم يكن مقصوراً على إقليم مجتمع دون آخر لكن أمره جاء من مقتضى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾(سورة سبأ، الآية 28)،

وقالك أيضا: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾، فبناء على هذا نرى أنَّ العالميَّة في الخطاب أمر لا خلاف فيه ومحسوم إلى كل من اصطفاه الله سبحانه واختاره رسولاً لتبليغ رسالته بدءا بالأنبياء والرُّسل لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾(سورة المائدة الآية 67)، وقال أيضا – في قصة سيدنا موسى وهارون على عليهما السلام– : ﴿**وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ**﴾(سورة الشعراء الآيات 10–15)، ففي هذه الآية شدَّ الله سبحانه وتعالى وعزَّز قوة الخطاب في التَّبليغ وقوة التَّأثير والإقناع عند سيدنا موسى عليه السَّلام في قومه بأخيه هارون عليهما السَّلام، وموازاة مع ذلك قال تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا**﴾(سورة طه، الآية 25–35.)، ثم نَثَّى بالخلفاء الرَّاشدين وصحابته الميامين (ﷺ) الذي جعل ذلك من كلِّ مُكَلَّف ومن جُبِل على التَّبليغ أهله في الدَّعوة والتَّبليغ.

•الواقعية:

من خصائص الخطاب الدِّيني عموما أنَّها تهدف إلى دراسة فقه الواقع ومعالجة مشكلاته الجارية، لذا ينطلق الخطاب من النَّص إلى الواقع، أي أنَّه يُعايش الواقع للإحاطة بما هو كائن في المجتمع (مُحمَّد العيد التِّجاني، 2016م).

1–3– نماذج من القيم الرُّوحيَّة:

شاء الله سبحانه وتعالى أنْ تخضع تركيبة الإنسان المادية في الخلق إلى شيئين اثنين الرُّوح والجسد، فلا يستطيع كلا منهما الاستغناء عن الآخر، كما أنْ الجسد في ديناميكيته واستمرار حيويته واستمداد طاقته يرتكز على الأكل والشُّرب، بينما الرُّوح هي الأخرى – باعتبارها كائن حي أزلي – تعتمد على القيم في التَّنمية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والاستمرار والتَّفاعل والتَّكيف مع الواقع، وفي ذلك لقد استقطب القرآن الكريم مجموعة من القيم الرُّوحية على اختلاف السُّور والآيات، وذلك لمكانتها ودورها الفَعَّال في إنماء الأرواح وتغذيتها، ومن هذه القيم نذكر:

●حسن الخلق:

إنَّ من أجلِّ الأشياء التي أشار إليها الشَّارع الحكيم في شد أواصر العلاقات الاجتماعيَّة بين النَّاس حسن الخلق، لما يحتويه هذا الخلق العظيم من ثمار ومواصفات الأدب، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(سورة القلم، الآية 4) وبه تستمر طيبة الحياة بين العباد وبه يرقى الإنسان أعلى الدَّرجات، وفي شأنه تَعَدَّدت الآيات القرآنيَّة والأحاديث النَّبويَّة الدَّالة عليه، ونستقي من ذلك بما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا**﴾(سورة الإسراء الآية 53.) وقال أيضاً: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾(سورة آل عمران، الآية 134)، وقال أيضاً: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ**﴾(سورة البقرة، الآية 83.)، وقال أيضاً في إرساء مبدأ هذا الخلق: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾(سورة فصلت، الآية 34).

وفي خضم هذه الآيات نلاحظ دعوة القرآن الكريم إلى الامتثال والتَّحلي بهذا الأساس من الأخلاق الحميدة، وهو من أفضل ما يتقرب به العبد إلى مولاه جلَّ علاه، وموازاة مع هذا تواتر الأحاديث النَّبوية الدَّالة والدَّاعمة لهذا الخلق ومن ذلك روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال ""**إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا**» (البخاري، 1423هـ/2002م)، وعَنْ أُمِّ المؤمنين عَائِشَةَ رَحِمَهَا اللَّهُ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**» (أبو داود، سنن أبي داود، دون سنة)، وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ**» (أبو داود، سنن أبو داود، دون سنة).

فحسن الخلق عند الصُّوفيَّة تجسد في طريقة استقبالهم للأفراد، فإذا استقبلوك بادروك بالبسمة والتَّحيَّة "السَّلام عليكم" مع عبارات التَّرحيب (أهلاً وسهلاً يا مرحبا (البخاري، صحيح البخاري، 2003/1423م) قرِّب لينا قرِّب لينا)، وهذه صدقة (البخاري، صحيح البخاري، 2003/1423م).

كما يمسكان يد (الترمذي، 1994م) الزَّائر مع السُّؤال عن الأهل والأقارب، وعندما تبادرهم بالسُّؤال عن أحوالهم يردون عليك: «السّوال إلاَّ عليكم»، وعند نهاية اللقاء يطلبون منك ويقولون: «تذكرنا بالدُّعاء» (الترمذي، 1994م، صفحة 456)، وإنْ طالبتهم أنت بذلك وقلت: «تذكرونا بالدُّعاء»، بكل تواضعٍ (مسلم النيسابوري، 1412هـ/1991م) يردون عليك بقولهم: «منَّا ومنكم»، أو يقولون لك: «المؤمن بأخيه»(انظر سورة القصص: الآية 35.). وهذا خُلقٌ يُوضح الهمة العالية (محمَّد إبراهيم ، 2003م) عند الفراد الصُّوفي الذي انبى على قاعدة التَّربية والتَّزكية المؤدية إلى تنمية القيم الرُّوحيَّة وتكريسها كأخلاق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

●المحبة:

تعدُّ المحبَّة من أهم القيم الرُّوحيَّة التي نادى بها الشَّارع الحكيم في محكم التَّنزيل لقوله تعالى: **(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)**(سورة آل عمران الآية 31)، وعليه لقد تعدَّدَتِ الآيات في شأن هذه القيمة وذلك لتعزيزها ولمكانتها باعتبارها مرتكزات الألفة بين النَّاس لاستمراريَّة التَّعايش الاجتماعي في ظلِّ الأمن والسَّلام القومي، قال تعالى: **(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)** (سورة الصف، الآية 13)، ومن السُّنة ما يثمن ذلك عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ – أَوْ قَالَ: لِجَارِهِ – مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» (صحيح مسلم، 1412هـ/1991م)، وعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**» (البخاري، صحيح البخاري، 1423/2003م).

فالمحبَّة عند الصَّوفيَّة عبادة يُتقرب بها إلى الله تعالى، فهي حجر الزّاوية في بناء الإسلام، وأخلاق المسلم، نادى بها القرآن الكريم، وندب إليها الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وعَمِلَ بها المسلمون في القرون الأوّلى جيلا بعد جيل، فعليها ربَّى شيوخ الصُّوفيَّة مريدهم (محمد العيد التجاني، الكلمة التَّوجيهيَّة بمناسبة الزِّيارة السَّنويَّة 1433هـ/2012م، 2012) .

2- أبعاد الخطاب الصُّوفي في تنمية القيم الرُّوحية.

2-1-تهذيب النَّفس وتعديل السُّلوك:

يعد تهذيب النَّفس مطلب شرعي ومقصد إسلامي نادى به الشَّارع الحكيم في أكثر من آية وذلك لكونه المعيار الذي تُقاس به تقوى القلوب وصفاء الروح، قال تعالى: **﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾**(سورة الشمس، الآية 7-10)، وقال أيضا: **(وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ)**(سورة الحج الآية 24)، وقال أيضا : **(بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)**(سورة البقرة الآية 112) وعلى غرار هذه الآية تعدَّدت صور تهذيب النَّفس ضمن النَّص القرآني من موضع لآخر وذلك حسب حال مقام الواقعة، فتارة يدعو الشَّارع الحكيم عباده بكلمة واحدة وهادفة مثل ما سبق في قوله تعالى (وهدوا)، وأيضا لفظة (محسن) والإحسان من مقامات تهذيب النَّفس، وتارة يدعو أولياءه بخطاب موجه وفي هذا الأمر تعدَّدت ألوان التَّوجيه الرَّشيد على حسب فئة العباد والمجتمعات والبيئات، فمنه ما كان موجه للمؤمنين مثل قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (سورة النساء الآية 135)**، وقال تعالى داعيا إلى اجتناب أصل الخبائث (الخمر): **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)**(سورة المائدة الآية 90) وقال تعالى داعيا إلى نبذ الخيانة حفظ الأمانة: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)**(سورة الأنفال الآية 27)، وقال أيضا داعيا إلى التَّقوى والصِّدق: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)**(سورة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التوبة الآية 119)، وقال تعالى مستنكرا ضلالة الشَّيطان وغوايته: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)**(سورة النور الآية 21).

ومنه ما كان موجه لأهل الكتاب مثل قوله تعالى –داعيا إياهم إلى نبذ الغلو ومخالفة الهوى المتبع–: **(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ)**(سورة المائدة الآية 77)، ومنه ما كان موجه للناس عامة ونختصر مثال ذلك ما وصى به الله تعالى جميع خلقه لتهذيب النفس بأسلوب الترهيب كما جاء في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)(سورة لقمان الآية 33.).

وضمن هذه النُّصوص والدَّلائل الشَّرعية نرى صور تهذيب النَّفس في دعوة القرآن الكريم تتفاوت من صفة لأخرى لأن كلمات الوحي جامعة مانعة تستهدف عدة مواضع في كلمة واحدة وذلك من صور الإعجاز البياني للقرآن العظيم.

والمتأمل في طيات صفحات تاريخ الخطاب الدَّعوي لدى الصَّوفيَّة قديما وحديثا يرى بذاته أنَّ أغلب الخطب المتناثرة عندهم تهدف جميعها إلى تحقيق الغاية النبيلة ألا وهي تهذيب النَّفس وتعديل السُّلوك، ومن هاته النُّصوص ما أورده الشَّيخ أبو بكر الكتاني و القشيري في رسالته(انظر الصفحة 4 تهميش 1، 2)

وهنا تجدر بنا الإشارة على أن التصوف هو إشراقات خُلقية استمدت قوامها وأسس معالمها من فيض الوحي ولغة القلم تأسيا بأخلاقه ومنابع صفائه ومشاربه الرُّوحية صلى الله عليه وآله وسلم، كما أنَّ شيوخ التَّصوف في الوقت الماضي والمعاصر يحرصون بجهدهم الفكري وأذواقهم الرُّوحية على تعديل السُّلوك عبر الموازاة والتَّوازن بين القوى الرُّوحية والقوى المادية وبين قوة الشَّهوة التي مسعاها تحقيق الملذات الشَّهوانية الزَّائلة، وقوة العقل التي تهدف إلى تحقيق العلوم والمعارف (مصطفى، 1424هـ/2004م)، وقد عبر عنها محكم التَّنزيل في آن واحد لقوله تعالى: **(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)**(سورة القصص، الآية 77).

وللتصوف الإسلامي قيم جوهرية استقاها خير من صلى عليه إله العرش في سمائه وأرضه من القرآن الكريم وجعل ذلك مرجع يُستند عليه في تكييف القيم الرُّوحية وتفعيلها حسب الطَّبائع السَّائدة في كل بيئة وإقليم، وجُل هذه القيم تهدف إلى تهذيب النَّفس البشرية وفقا للمعطيات الإيمانية المستمدة من وحي الرِّسالة الإلهية، وبذلك يمكن القول أنَّ "قيمة التَّصوف تكمن في معالجته لآلام القلوب وتضميد جراح الجماعة التي مزقتها رذائل أعضائها غير الصَّالحة. لقد كانت الرِّياضة والمجاهدة والتَّأديب والتَّهذيب هي الطَّريق لتحقيق ذلك بالإدارة العملية التي يستعين بها الإنسان على تصفية النَّفس وتنقية القلب والتَّخلق بالأخلاق الكريمة بحيث يصبح الإنسان صافيا." (بلحنافي ، 2016)

2-2-إرساء قواعد الإيمان والقيم الإسلاميَّة:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنَّ العمل على إرساء قواعد الإيمان وترسيخ ثقافة القيم الإسلاميَّة والمبادئ القرآنيَّة المستوحاة من فيض الوحي الرَّباني في نفوس البشر من مستجدات العصر والواقع، ومن المطالب التي وصى عليها الشَّارع الحكيم وعمل على تنصيب قواعدها النَّبي الكريم امتثالا لتنفيذ أوامر الله تعالى حين خاطب نبيه بلغة الدَّعوة والرِّسالة لقوله تعالى: **(ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)**(سورة النحل، الآية 125) اختلاف الأزمنة فها هو الشيخ أحمد التِّجاني ألقى كلمة جامعة مانعة تلخص الجمع بين الأصالة والمعاصرة في مواكبة الأحداث ومستجدات العصر وفقا وتماشيا مع دعوة الآيات والصور القرآنيَّة وجعل ذلك قولا وصيا خالدا يستند عليه جملة من المريدين (بِسَيْرِ زَمَانِكَ سِرْ)

ولقد استقطب حيز هذا العمل جملة من مشايخ الطُّرق الصُّوفيَّة على اختلاف مشاربهم وأذواقهم ومناهجهم الرُّوحية، ومن استقى من فيض كأسهم فكانوا هداة مهتدين ونبراسا للعمل الدَّعوي والتَّوجيه الدِّيني الصَّحيح والوعي الذَّاتي الذي لطالما استهوته شياطين العولمة الغربية والدُّول العلمانية لزعزعة العقيدة الإسلاميَّة واضعاف قداسة الإسلام في نفوس المسلمين، وانزياحهم عن النَّهج المستقيم، ومن أجل هذا وذاك عمل شيوخ التَّصوف بكل ما أتوا من أدوات وأليات وأساليب علمية لتحصين عقيدة الفرد المسلم وبناء شخصيته وفق المنظور الإسلامي.

ومن أليات قواعد المحافظة على إيمان المؤمن وقيمه الشَّرعية الحنيفة العمل على ترسيخ قيم التَّعايش الاجتماعي بين النَّاس، لأن التَّعايش بين أطياف المجتمع وفق ألياف التَّراحم والتَّعاطف والتَّسامح تزيد هذه الأخيرة من قوة الإيمان والتَّشبث بالقيم القرآنيَّة والتَّحلي بفضائل الدِّين الإسلامي، وفي هذا الباب عمل شيوخ التَّصوف بكل ما أوتوا من قوى على توظيف معطيات الدِّين في الجانب الاجتماعي، وفي هذا السِّياق نجد أنَّ "زوايا الطُّرق الصُّوفيَّة في الجزائر عملت على إزالة الخلافات بين مختلف فئات المجتمع وفك النِّزاع بين العشائر والقبائل لذلك كثرة في المدن والأرياف والتي بدورها تؤدي دورا اجتماعيا كإيواء العجزة والمساكين والغرباء وليكون بذلك الشَّيخ الذي يترأس أو يمثل الزَّاوية أو الطَّريقة هو بمثابة المسؤول والحاكم بين أفراد المجتمع ويفصل في جميع القضايا والخلافات الاجتماعية، بالإضافة إلى الدَّور التَّربوي الذي يقدمه كذلك من تعاليم لسكان وهذا ما جلب له التَّأييد والطَّاعة المطلقة" (جاب الله، 2013).

ومن صور العناية بالشخصية الإسلامية وما قامت به الزوايا ومشايخها لتسيخ القيم الإيمانية لدى الفرد والمريد "المحافظة على القرآن الكريم وتحفيظه وحفظه في صدور أبناء المسلمين كتابة ورسما وتلاوة وتجويدا. حتى لا تمتد إليه يد التَّحريف والتَّغيير ويتلى في الصَّباح والمساء في المساجد والبيوت فردا وجماعة" (جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، 2013)، وفي هذا دليل على شيوع روح الجدية عند الصُّوفيَّة في اخراج النَّاس من ظلمات القيم المنحرفة إلى نور سماحة الإسلام وقيمه النَّبيلة، حتى أن "طالب الزَّاوية كان يتمسك بدينه ويتعلق بشخصيته ويعتز بثقافته العربية الإسلامية في الوقت الذي كان النَّاس فيها يتهافتون فيه على اللغة الفرنسية لغة الخبز المغموس في دماء الضَّحايا المذبوحين" (جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، 2013).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2-3-نبذ الغلو والتَّطرف الدِّيني.

إن من سمات ومميزات الخطاب الصُّوفي عبر الحقبات الزَّمنية المتعاقبة ووصولا إلى الوقت الحاضر المعيش نبذ المغالاة في أحكام الدِّين والتَّطرف عليه، لذا كان خطاب وسطي ينفرد بالاعتدال ويراعي بذاته فقه الواقع وظروف المدعو، كما أن الغلو ليس من صفاة المسلمين وإنما اتصف به غيرهم من أهل الكتاب لقوله تعالى: **(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)**(سورة المائدة الآية 77)، حيث يقول النَّسفي في تفسير هذه الآية: "الغلو مجاوزة الحد فغلو النَّصارى رفعه فوق قدره باستحقاق الألوهية وغلو اليهود وضعه عن استحقاق النُّبوة {غير الحقِّ} صفة لمصدر محذوف أي غلوا غير الحق يعني غلواً باطلاً" (أبو البركات، 1419 هـ - 1998 م)

فتماشيا مع توصيات القرآن الكريم في الانحياز عن كل ما يتصادم مع حقائقه ومبادئه، ومن أجل ذلك كرَّس الصُّوفيَّة وشيوخهم جلَّ حياتهم في دعوة النَّاس إلى الالتزام واتباع ما أمر الله تعالى به دون غلو ولا تطرف عنه وانبعاث فيهم روح التَّعايش السِّلمي بين فقه الإحكام الإلهية وظروف الحال المحيط بهم، حيث أنَّهم يدركون النَّتائج المتوخية إثر ظاهرة الغلو ومحنة التَّطرف في الوسط الإسلامي.

ولقد عايش رجال التَّصوف الإسلامي منذ زمن بعيد عواصف التَّغيير الاجتماعي والمحن السِّياسية التي عرفتها البلاد العربية بعد الفتوحات الإسلاميَّة وانبعثت في أوساطها الثَّقافات الغربية ومخاطر الحضارة، حيث عملت هذه الأخيرة على بث روح معادلة التَّعايش بين الأديان وعلى وجه الخصوص الحرية في المعتقدات ما أدى بذلك ترعرع ظاهرة التَّطرف في المجتمع الإسلامي.

تعد مسألة الغلو والتَّطرف من إحدى المسائل الشَّائكة والرَّكائز الأساسيَّة من المعضلات الدَّعوية التي شهدتها السَّاحة الإسلامي في الآونة الأخيرة ولذلك لتفشي أمراض القلوب وإصرار نفوس تشبثت برأيها دون مراعات لفقه المقاصد من ظاهر النَّص وباطنه، لذلك انزوت كل حركة إسلاميَّة بمبدأيها وقيمها، وفي خضم

ومن أجل ذلك حرص الخطاب الصُّوفي على ترسيخ ثقافة التَّعايش الاجتماعي في ظلِّ تداعيات اللدِّ والخصومات ولاسيما الأفكار الهدامة والحادة في آن واحد، وعليه نجد أن "كبار علماء وخلفاء الشَّيخ التِّجاني، فقد سعوا كلٌّ من جهته لتكريس مبادئ وقيم التسامح، وقيم العمل والعبادة وفق منهج الشَّيخ التِّجاني الذي يدعو إلى الجمع بين العمل والعلم والعبادة، وهذا شعار يرفعه التَّجانيون من وصية أكبر خليفة للشيخ التِّجاني في الصَّحراء الجزائرية، وهو الحاج على الينبعي التَّماسيني، والشِّعار بلغة عامية ((السّبِيحَة والمْسِيحَة واللّوِيحَة حتَّى تَخْرُجْ الرُّوِيحَة)) أي: ملازمة السُّبحة وهي أداء الذِّكر والعبادة، واللوحة، وهي أداة حفظ القرآن في إشارة إلى طلب العلم، والمسيحة، مصغر مسحاة، وهي آلة الحرث اليدوية، إلى غاية خروج الروح" (عليان ، 1435هـ/2014م).

والمستفاد من هذا القول أنَّ فقه الطَّريقة التِّجانيَّة ومنهج علمائها عملوا مزاوجة الأسس الثَّلاثة وهي العلم والعمل والعبادة لاستمرار ديناميكيَّة الحياة والتَّماشي مع ظروف ومستجدات العصر وفقا لضوابط الشرع الحنيف.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2-4-تعزيز قيم التَّفاعل الإيجابي لروح العصر.

تهدف الخطب الصُّوفيَّة في جُلِّ مناسباتها وعلى حسب اختلاف مضامينها وتعدد أشكالها واتساع ميادينها لمزامنة العصرنة الحديثة فقا لضوابط الشرع الحنيف وتماشيا مع تجديد أمر الدَّين، فلم تكن الخطب لديهم ساكنة وجامدة مقتصرة على ما وُجدت عليه في العصور الماضية، بل كانت لها ديمومة وديناميكيَّة فعَّالة تستقطب أفاق الزَّمان والمكان للأفراد والمجتمعات لتحيق الهدف الأسمى والغاية المثلى للوجود البشري ألا وهي تحقيق مقتضى العبودية لله تعالى، والسُّمو بذات الفرد المسلم ونيل حتمية وجوده في اعمار الكون، وفي ذلك يدعو كل من أقطاب التَّصوف الإسلامي ورجال الطُّرق الصُّوفيَّة وعُمَّار الزَّوايا إلى التَّحلي بقيم تعاليم القرآن وشعائر الإسلام بغية التَّفاعل الإيجابي لروح العصر ومواكبة أحداثه ومستجداته، ولقد عبر عنه شيخ الطَّريقة التِّجانيَّة ومؤسسها الأول الشيخ أحمد التِّجاني بكلمة جامعة مانعة تستوعب شتى منحى الاستفادة من تطوير الحياة وهي: "بسير زماك سر" (محمد الطيب، 2008م)، وأبقت هذه الكلمة شامخة سارية المفعول وسار على نهجها خلفائه وأتباع الطَّريقة التِّجانيَّة حتى اليوم، والسَّيرورة المنوطة في هذه المقولة هي السَّير المباح الذي يتماشى مع خصائص القرآن الكريم؛ وهذا الأخير بصفته لم يكن صالحا لزمن معين دون آخر بل جاء لكافة الأزمان وخصائصها والأماكن وطبيعتها.

ومن صور الاستجابة لهذه المقولة -بخلاف التَّأويلات الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان والتي يبرزها ناكري الطَّريقة والتَّصوف - دعوة الشَّيخ محمد العيد التِّجاني التماسيني كافة أحبابه ومريدي الطَّريقة التِّجانية إلى الاستفادة من تطوير أساليب الحياة تطويعها في خدمة الدِّين الإسلامي، ونشر الوعي والفكر الرَّشيد، فقد قام بإنشاء والإشراف على جملة من هياكل ومؤسسات العلم مثل بناء الزَّوايا والمساجد والمدارس القرآنية والمراكز الثقافية(انظر/ المركز الثقافي بقمار ولاية الوادي، والزاوية التجانية بتماسين، وانظر/مشروع انجاز المركز الثقافي بالزاوية التجانية بولاية عنابة وغيرها من المراكز.) حيث اسهم بمشاركة حية وفعالة في مواصلة وترميم الزَّاوية التِّجانيَّة بقمار.

ومن المعلوم أن زاوية قمار شهدت ومازالت حتى اليوم دورا وتعزيزا للقيم والمعالم الحضارية وتفعيل الحركة العلمية والثقافية (طهراوي) (السعيد عقبة، 2016)، وفي هذا الصدد شيّد الشيخ محمد العيد التجاني -بكل ما أوتي من قوة مادية ومعنوية- المركز الثَّقافي التَّابع للزاوية وجعله نبراسا يستضيئ به المسلم في ظلمات اصطدام الحضارات والثَّقافات الغربية الوافدة إضافة إلى ذلك جعلها فضاء حضاري ثقافي وإشعاع روحي يسمو به المريد أعلى دراجات العلم وأرقى منازل العمل.

فقد قام وساهم في العديد من مشاريع العلمية النَّافعة مثل: فتح النَّدوات العلمية والملتقيات الدُّولية والوطنيَّة الولائية، ما أدى بذلك إلى اتساع رقعة التَّفاعل والتَّلاقي بين الجزائريين خاصة والمسلمين عامة، بالإضافة إلى ترقية الفكر من طابع الأصالة والتَّقليد إلى طابع الانفتاح والتَّفاعل الإيجابي لروح العصر وتنوير الأذهان والرَّقي بها في مراتب الازدهار الفكر الحضاري (نجاح التجاني، 2018)، والدَّعوة إلى تحسين المستوى الدِّراسي، وكذا تحصيل الشَّهادات العلمية والثَّقافية تماشيا مع الخطاب القرآني الدّاعي إلى طلب العلم، وأصبحت الزَّوايا التِّجانية على غرار الزَّاوية التِّجانية بعين ماضي والزَّاوية التِّجانية بتماسين محط أنظار للعالمين والوافدين من أقطار شتى بغية التَّعريف بها والاستقاء بماء المحبة وأذواقها الرُّوحية المستمدة من روح الشَّريعة الإسلاميَّة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خاتمة:

بعد هذه الجولة في رحاب البحث توصلنا إلى النَّتائج التَّالية:

1-يعد الخطاب الصُّوفي إحدى أوان الخطاب الدِّيني المستوحاة من القرآن الكريم.

2-يعتمد الخطاب الصُّوفي في الدَّعوة والتوجيه على الأساليب المنوطة في القرآن الكريم والمضي معها وفق المنهج النَّبوي الشَّريف في التَّطبيق.

3-أدى الخطاب الصُّوفي دورا كبير في تهذيب النَّفس وتعديل السُّلوك لدى الفرد الصُّوفي، بالإضافة إلى إرساء قواعد الإيمان وترسيخ ثقافة المحبَّة بين العباد ما أدى ذلك كله إلى التَّمسك بالقيم الرُّوحية المستمدة من فيض الوحي الإلهي والسُّنة النَّبوية المطهرة.

4-يتميز الخطاب الصُّوفي بعدَّة خصائص أدت به إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة في الثَّبات والمرونة والتَّكيف مع متغيرات العصر.

5-لقد ساهم الخطاب الصُّوفي في ترقية النَّمط الذَّهني للفرد الصُّوفي إلى التَّفكير الإيجابي الذي نادى به الشَّرع في ما يسمى بالتَّدبر فيما خلق الله سبحانه وتعالى والتَّكيف مع معطيات فقه الواقع ومستجدات الحياة.

6-ساهم شيوخ الطُّرق الصُّوفية عموما في إحداث نهضة علمية تتجلى معالمها في التَّفاعل الإيجابي لروح العصر، ومن بين هؤلاء الشُّيوخ نجد أعلام وشيوخ الطَّريقة التِّجانيَّة.

7-أدت دعوة وتوجهات الشَّيخ مُحمَّد العيد التِّجاني التَّماسيني المتكرِّرة، إلى الاستفادة من أساليب العصر وتطويع ذلك كله في خدمة الدِّين والعباد وازدهار الحياة، إلى إرساء دعائم نهضة علمية قد تؤتي أكلها بعد حين إنْ سلمت نوايا القيمين عليها وكان هدفهم الله.

المراجع

ابن منظور. (1414هـ). *لسان العرب* (المجلد الطبعة الثالثة). بيروت، لبنان: دار صادر.

أبو العلا عفيفي. (بلا تاريخ). *التصوف الثروة الرُّوحية في الإسلام*. بيروت: دار الشعب للطِّباعة والنشر.

أبو القاسم القشيري. (1422هـ/2001م). *الرسالة القشيرية*. بيروت: دار الكتب العلمية.

أبو القاسم محمود الزمخشري. (1419هـ/1998م). *أساس البلاغة* (المجلد الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

أبو بكر بن محمد الكلاباذي. (1352هـ/1994م). *التعرف لمذهب أهل التصوف* (المجلد الأولى). القاهرة: مكتبة الخانجي.

أبو داود. (دون سنة). *سنن أبو داود*. صيدا، بيروت: المكتبة العصرية.

أبو داود. (دون سنة). *سنن أبي داود* (المجلد دون طبعة). صيدا – بيروت: المكتبة العصرية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أبو عبد الرَّحمن السُّلمي: . (1419هـ/1998م). *الطبقات الصوفية* (المجلد الطبعة الثانية). دون مكان: كتاب الشعب.

أبو نصر السراج الطوسي. (1960/1380). *اللُّمع* (المجلد دون طبعة). مصر: دار الكتب الحديثة.

أحمد سكيرج. (2009). *الكوكب الوهاج لتوضيح المناهج* (المجلد الأولى). الوادي: دار التجاني.

التجاني محمد الطيب. (2008م). *الإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية* (المجلد الثانية). تغزوت–الوادي–الجزائر: دار التجاني للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة والانتاج السمعي البصري.

الدويكات سناء. (28 12، 2016). *مفهوم التنمية لغة واصطلاحا* . تاريخ الاسترداد 22 02، 2020، من موقع موضوع: https://mawdoo3.com

السعيد عقبة. (30 12، 2016). النشاط العلمي والثقافي للزاوية التجانية بقمار، خلال القرنين19و20م. *مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية*(العدد الثاني).

الطيب جاب الله. (أكتوبر، 2013). دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري. *مجلة معارف*، صفحة 133.

الطيب جاب الله. (أكتوبر، 2013). دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري. *مجلة معارف*، صفحة 142.

الطيب جاب الله. (أكتوبر، 2013). دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري. *مجلة معارف*، صفحة 144.

أمامة عدنان محمد. (1424هـ). *التجديد في الفكر الإسلامي* (المجلد الأولى). المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي.

إياد كامل إبراهيم الزيباري. (بلا تاريخ). *سياسة التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية (سلسلة الرسائل والدراسات الجامعية)*. بيروت: دار الكتب العلمية.

بن المناوي عبد الرؤوف . (1410هـ/1990م). *التوقيف على مهمات التعاريف* (المجلد الأولى). القاهرة: دار عالم الكتب.

جالودي عليان . (1435هـ/2014م). *التحولات الفكرية في العالم الإسلامي: أعلام، وكتب، وحركات، وأفكار من القرن* (المجلد الأولى). هرندن–فرجينيا–الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

جوهر بلحنافي . (02، 2016). التصوف والتربية الروحية "السمو الأخلاقي في التصوف الإسلامي". *مجلة لوغوس*.

حافظ الدين النسفي أبو البركات. (1419 هـ – 1998 م). *تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)* (المجلد الأولى). بيروت: دار الكلم الطيب.

حلمي مصطفى. (1424هـ/2004م). *الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام* (المجلد الأولى). بيروت: دار الكتب العلمية.

خير الدين الزركلي. (دون سنة). *الأعلام* (المجلد 15). دون مكان: دار العلم للملايين.

صحيح مسلم (المجلد الأولى). (1412هـ/1991م). دون مكان: دار إحياء الكتب العربية.

عبد الله أحمد بن عجيبة. (دون سنة). *معراج التشوف إلى حقائق التصوف*. الدّار البيضاء: مركز التّراث الثقافي المغربيّ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عبد الوهاب الشعراني. (1315 هـ). *الطبقات الكبرى*. مصر: مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه.

عمر أحمد مختار. (1429هـ/2008م). *معجم اللغة العربية المعاصرة* (المجلد الأولى). القاهرة: عالم الكتب.

عيسى بن محمَّد الترمذي. (1994م). *سنن التِّرمذي* (المجلد الرابعة). حلب–سوريا: مكتبة المطبوعات الإسلامية.

مجد محمَّد إبراهيم . (2003م). *فِعْلُ الهِمَّةِ في المحبَّة و الإرادة عند الصُّوفية* (المجلد الأولى). القاهرة: مكتبة الثَّقافة الدِّينية.

محمد العيد التجاني. (1434هـ/2013م). الكلمة التَّوجيهيَّة بمناسبة الزِّيارة السَّنويَّة 1434هـ/2013م. تماسين، ورقلة، الجزائر: مطبوعات الزَّاوية التّجانيَّة.

محمد العيد التجاني. (2012). الكلمة التَّوجيهيَّة بمناسبة الزِّيارة السَّنويَّة 1433هـ/2012م. تماسين، ورقلة، الجزائر: مطبوعات الزَّاوية التّجانيَّة .

مُحمَّد العيد التِّجاني. (2016م). الكلمة التَّوجيهيَّة بمناسبة الزِّيارة السَّنويَّة 1437هـ/2016م. تماسين، ورقلة، الجزائر: مطبوعات الزَّاوية التّجانيَّة.

محمد أنور. (27 03، 2015). *الخطاب الإسلامي .. من المنبر إلى شبكة الإنترنت*. تاريخ الاسترداد 5 11، 2020، من شبكة البيان: https://www.albayan.ae/books/from-arab-library/2015-03-27-1.2340658

محمد بن إسماعيل البخاري. (2003/1423م). *صحيح البخاري* (المجلد الأولى). دون مكان: دار الصفا.

محمد بن إسماعيل البخاري. (2003/1423م). *صحيح البخاري* (المجلد دون طبعة). دون مكان: دار الصفا،.

محمد بن إسماعيل البخاري. (2003/1423م). *صحيح البخاري* (المجلد الأولى). دون مكان: دار الصفا.

محمد بن إسماعيل البخاري. (1423هـ/2002م). *صحيح البخاري* (المجلد الأولى). دمشق: دار ابن كثير.

محمد شمس الحق العظيم أبادي. (2013م). *عون المعبود شرح سنن أبي داود* (المجلد الثالثة). بيروت: دار الكتب العلمية.

محمود داود الربيعي. (2012م). *الفكر الإداري المعاصر في التربية والتعليم*. بيروت: دار الكتب العلمية.

محمود عبد الحليم. (دون سنة). *قضية التصوف–المنقذ من الضلال* (المجلد الخامسة). القاهرة: دار المعارف.

مريم طهراوي. (بلا تاريخ). خزائن المخطوطات بالجنوب الجزائري التعريف بالخزانة العلمية للزاوية التجانية قمـار. *مجلة الذاكرة*.

مسلم النيسابوري. (1412هـ/1991م). *صحيح مسلم* (المجلد الأولى). دار الحديث.

معدِّى الحسينى الحسينى . (1434هـ/2013م). *موسوعة الصوفية* (المجلد الأولى). القاهرة: كنوز للنشر والتوزيع.

نجاح التجاني. (07 05، 2018). *إشراقات من فكر الشيخ الدكتور سيدي محمد العيد التجاني رضي الله عنه*. تاريخ الاسترداد 6 11، 2020، من نفحات 7: http://www.nafahat7.net

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com